سيرة شهادة بوليكارب

يا أخوة، من أجلكم نكتب أعمال الشهداء والطوباوي بوليكارب، حيث ان العذاب كان خاتمة اضطهاده. تقريبًا في كل الأحداث التي سبقت موته، يبيّن لنا الرب كيف أن شهادة بوليكارب كانت إنجيلية بكاملها. لقد انتظر بوليكارب لكي يتمّ تسليمه، كما حصل مع الربّ، وذلك من أجل ان يسير على مثال يسوع. نحن ننظر أكثر إلى مصلحتنا منه إلى مصلحة القريب. عندما يكون الحب حقيقيًا وقويًا، فهو لا يسعى لكي يخلص لوحده، بل يسعى لكي يخلّص أيضًا إخوته. ساهرون وطوباويون، هم كل الشهداء الذي يمجدون الله! ليكن لنا إيمانًا كافيًا من أجل ان ننسب إلى الله هذه الحرية وسط هذا الكمّ من التجارب. من يمكنهم إلا ان يعجب بشجاعة هؤلاء الرجال، وبصبرهم، وبالحب الذي حملوه لسيدهم؟ ضربوا بالسيوط، التي أذت مفاصلهم وعروقهم، لم يتذمروا، في حين أن المساعدين لم يستطيعوا كبت صراخات آلامهم وطلب الرحمة. لكن عندهم، لم نسمع لا عنان ولا تأفف، وهذا يشير إلى أن هؤلاء الشهود للمسيح كانوا قد تركوا أجسادهم، او ان السيد كان هنا وكان هو يهتم بهم.
مسرورون بنعمة المسيح، لم يكن لهم إلا كل ازدراء للعذابات التي أصابتهم، لأن ساعة عذاب واحدة ستجعلهم يربحون الحياة الأبدية. إن نار جزاريهم اللاإنسانيين تبدو لهم باردة. كان هناك نارًا أخرى تقلقهم، يريدون الهروب منها، إنها النار الأبدية، وهي التي مقدر لها ان لا تنطفئ أبدًا. كانوا يرون بعيون الأطفال المحاسن التي سيعطيهم إياها الله مقابل شجاعتهم، ما لم تسمعه أذن، وما لم تراه عين (كورنتث الأولى، 2، 9). غير أن السيّد سيكتشفهم ذلك أنهم لم يعودوا بشرًا بل باتوا ملائكة.
هؤلاء الذين أدينوا ليموتوا امام الوحوش تحملوا أيضًا عذابات شديدة: كان يتم تمديدهم على أحجار مروّسة، وتعريضهم لتعذيب شديد، متاملين أن تؤدي إجراءات التعذيب المختلفة والطويلة بأن يتخلى هؤلاء عن إيمانهم.
كان الشيطان يستعمل ضدهم كل انواع الحيلة. لكن بنعمة الرب لم يستطع أن يغلب أحدًا منهم. بوليكارب، الأكثر إثارة للإعجاب من بينهم، لم يجعل نفسه تتأثر بشائعات الاضطهادات. كان يريد البقاء في المدنية. لكن بما ان محيطه كان يضغط عليه من أجل الاختباء، نجح في الوصول إلى منزل صغير ليس بعيدًا من مدينة سميرن وهناك مكث مع اصدقائه، يمارسون الصلاة ليل نهار من أجل كل الناس وكل كنائس العالم بحسب العرف.
خلال صلاته، وقبل ثلاثة أيام من توقيفه، رأى رؤية: اشتعلت مخدته بالكامل. فقام بالاستدارة باتجاه رفاقه قائلًا: "يجب أن يتم حرقي وأنا حيًا".
كان يتم التفتيش على بوليكارب بشكل حثيث. وهو نجح في الوصول إلى مخبئ ثان: ولم يكد يصل إلى هذا البيت حتى انطلق الناس في إثره. وعندما لم يجدوه في المنزل الأول، قاموا باعتقال شابين عبدين، وعذبوهما، وعلى أثر التعذيب قام أحدهما بالكلام. عندها لم يعد باستطاعة بوليكارب ان يختبئ، ذلك أنه تم كشفه من قبل أحد التابعين له. تم اقتياده إلى الحلبة، وبهذا أكمل بوليكارب مصيره، بأن يصبح واحدًا في المسيح، في حين أن الذين سلموه سيعانون من عذاب يهوذا.
قاموا بأخذ العبد الشاب. كان يوم جمعة، حوالي ساعة العشاء. الجنود على الأحصنة وعلى أرجلهم مسلحين حتى أسنانهم، قاموا بملاحقته، كما لو انهم يلاحقون قاطع طريق. وجدوا المنزل حيث يتواجد بوليكارب في وقت متأخر، كان هو ينام في الطابق العلوي. مرة أخرى استطاع النفاذ من بين أيديهم. لكنه رفض إلا ان تنفذ إرادة الله كما قال.
عندما علم أنهم هنا، نزل وقام بمحاورتهم. صدموا هم بعمره ونضجه، وهم لم يستوعبوا كيف انه تمّ وضع كل هذا العدد من الجنود من اجل ملاحقة رجلًا عجوزًا ونبيلًا كهذا. لكنه، ورغم الوقت المتأخر، دعاهم للجلوس ومشاركته الطعام والشراب، وطلب منهم أن يتركوه ساعة من أجل ان يصلي بسلام. وقد أعطوه هذا الوقت. وعليه، قام بالصلاة واقفًا، وكان ممتلئًا من نعمة الله بشكل أنه استمر بالصلاة والكلام لفترة ساعتين والتأثير في الناس الذين يسمعونه. العديد منهم تابوا لأنهم أتوا وراء عجوزًا بهذا القديس.
عندما أنهى صلاته، حيث ذكر كل اللذين التقاهم في حياته، صغارًا أو كبارًا، المشهور منهم والمتواضع، وكل الكنيسة الكاثوليكية، المنتشرة في العالم اجمع. كانت ساعة الانطلاق قد دقت. تم ربطه على حمار وسوقه إلى المدينة: كان يوم السبت الكبير. هيرودوس، ووالده نيساتس، أتيا إلى امامه وأصعداه في عربتهما. وهما إلى جانبه حاولا أن يقنعاه بالرجوع عن رأيه: "أي سوء يمكن ان يقال سيد قيصر، وان يتم التضحية ورؤية ديننا من أجل إنقاذ حياتنا؟".
لكنه لم يرد عليهما بداية، وكما ولو أنه يشدد على فكرته قال لهما: لن أتبع نصائحكما". بعد أن أذلا بخيبتهما، قاما بلقاء الشتائم عليه ودفعاه بقوة من عربتهما بشكل أنه كسر رجله وهو ينزل منها. ولكنه لم يبدو مضطربًا، ومشي بإصرار كما ولو انه لا يشعر بشيء من الألم باتجاه الاستاد الذي سيتم فيه إعدامه.
خرجت من الاستاد إشاعة ضخمة ولم يستطع أحدًا أن يتلافاها. عندما وصل بوليكارب إلى أبواب الإستاد، خرج صوتًا من السماء: "كن شجاعًا يا بوليكارب، كن رجلًا". لم يعرف احدًا من الذي تكلّم، ولكن أحباءنا الذين كانوا متواجدين في الإستاد سمعوا هذا الصوت. عندما علمت الجموع ان بوليكارب تمّ توقيفه، تضاعفت المطالبات. عرض بوليكارب أمام القنصل وسأله إن هو الرجل المقصود. فأجاب بوليكارب "أجل". عندها حاول القنصل دفعه إلى التخلي عن إيمانه: "إحترم عمرك" قال له. تبع ذلك كل العبارات التي يمكن ان نسمعها في وضع مشابه: "أحلف بإسم قيصر، تراجع، أصرخ: الموت للكفار".

عندها نظر بوليكارب بحزن على جموع الوثنيين المتواجدين في الاستاد، ووجه يده إليهم. ثم أخذ نفسًا، ورفع عيونه إلى السماء. وقال: "فليسقط الوثنيون". فقال القنصل بالضغط عليه: "أحلف بقيصر وأعدك بأن أحررك، إلعن المسيح". فأجاب بوليكارب: "إذا كانت تتخايل أنني سأحلف بإسم قيصر، كما تقول، وأن انكر ما أنا، إسمع إذًا لمرة ما لدي: أنا مسيحي. فها إني أخدم المسيح منذ ست وثمانين عامًا ولم أرى منه أي سوء. كيف لي ان أشتم ملكي ومخلصي؟ إذا كانت المسيحية تثير اهتمامك، إعطي نفسك يومًا من أجل ان تسمعني. فأجاب القنصل: "حاول أن تقنع الشعب". لكن بوليكارب أجاب: "معك أحب أن أشرح نفسي. الله طلب منا أن نحترم السلطة والوظائف العليا التي هو أقامها، طالما أن هذه الأخيرة لا تؤذينا. لكن هؤلاء الناس لديهم القليل من الكرامة لكي احاول أن ادافع عن إيماني أمامهم".

فأجاب القنصل: "لدي حيوانات مفترسة، سأرميك إليها غن لم تغيّر رأيك". دعهم يأتون، أجاب بوليكارب. عندما نحن نغيّر، لا نذهب من الحسن إلى الجيّد. بل نذهب إلى مصير أفضل. هنا انزعج المسؤول: "سأبعث بك إلى عامود الحرق إن كنت لا تخاف الحيوانات المفترسة. أنت كافر إذًا" أجاب بوليكارب: "أنت تهددني بنار ستحرقني لساعة، ولكنها سنتطفئ بسرعة. لكنك تجهل نار الحكم الآتي والقصاص الأبدي الذي سيصاب به الكفار. لماذا تتأخر إذًا؟ إذهب، وأعطي اوامرك".

هذه كانت عبارات بوليكارب. كان يشع شجاعة وسعادة. وكانت النعمة تغمر وجهه. لم يجعل من نفسه ضعيفًا في هذه المواجهة، لا بل بالعكس كان القنصل هو من يقع في حالة من الهلع.

لكن هذا الأخير قام ببعث الناطق بإسمه إلى وسط الاستاد ليعلن مات ثلاثة: "بوليكارب اعترف أنه مسيحي". هذا الإعلان جعل جموع اليهود والوثنيين الساكنين في سميرن يدخلون في حالة من الهيجان. وانطلقت الصراخات: "إنه هو، معلم آسيا، أب المسيحيين، المجدف على آلهتنا، إنه هو الذي يدعو الجموع لعدم تقديس الآلهة وعدم عبادتها".

وسط هذا الصراخ، طلبت الجموع من فيليب ليفلت أسدًا على بوليكارب. لكنه قال أنه لا يحق له ذلك، لأن صراع الحيوانات المفترسة قد انتهى. وإذ بهم بصوت واحد يطالبون بأن يتم حرق بوليكارب. كان هنا لا بدّ أن تتحقق الرؤية التي رآها بوليكارب حول مخدته المشتعلة. وفي الوقت الذي كان يصلي فيه كان يقول انه "لا بدّ ان اموت حرقًا".

تدافعت الأحداث. فما كان من الجموع إلا ان اندفعت من أجل التفتيش عن حطب وتحضير عملية الحرق. عندها قام الشهيد بنزع ثيابه بنفسه، وحذاءه، الأمر الذي أثار انتباه المؤمنين: وفي هذا الجوّ من الحماسة الدينية توافد حوله العديد من المؤمنين الذين يريدون لمس جسده ومساعدته. حتى قبل شهادته، إن قداسة سلوكه كانت موضوع إلهام.

سرعان ما وضع حوله الأشياء من أجل عملية الحرق. ولكن حين أرادت الجموع صلبه على العامود: "أتركوني كما انا، قال لهم، فمن أعطاني القوة لمواجهة هذه الشعلات، سيعطيني القدرة على تحملها من دون ان تمسمروني وتثبتوني على العامود". فلم يمسمروه واكتفوا بربطه فقط. كانت يداه خلف ظهره، كانت يشبه كبشًا رائعًا مأخوذًا من قطيع كبير من اجل تقدمة ذاته في سبيل الله. عندها رفع عينيه إلى السماء وقال: "سيدي، انت الله الكلي القدرة، أب يسوع المسيح، إبنك المبارك والحبيب، الذي علينا ان نشكرك من أجله، انت رب الملائكة، والقوات، وكل الخليقة وكل أهل الحق المعترفين بك والذين يعيشون تحت ناظرك، أباركك لأنك حكمت انني اهل لهذا اليوم ولهذه الساعة، وأن أتحمل المشقات من أجل المسيح، ومن اجل القيامة وكسب الحياة الأبدية لنفسي ولجسدي في اتحاد طاهر بالروح القدس. اقبلني من بين هؤلاء الذين يعيشون في حضرتك اليوم: لتكن تضحيتي بهذه الروعة في سبيلك، بما يتوافق مع المصير الذي حددته لي والذي أتممه. انت الذي لا تعرف الكذب، يا إله الحقيقة، أمدحك بكل نعمك، وأباركك، وأمجدك بإسم الكاهن الأكبر الأبدي السماوي، يسوع المسيح، إبنك الحبيب، الذي من خلاله كان لك المجد وكذلك كان المجد للروح القدس، اليوم وفي كل يوم من الدهور القادمة. آمين".

عندما لفظ لفظة "الآمين" هذه، والتي ختم فيها صلاته، قام الخدام بإشعال النار. فكانت شعلة كبيرة ارتفعت وكنا نحن شهودًا لمشهد استثنائي لم يعطى إلا للذين تم اختيارهم لكي يتكلموا فيما بعد عن هذا الحدث. أصبح شكل النار مستديرًا. تشبه عربة منفوحة بالهواء، وكانت تحيط بشكل كامل بجسد الشهيد. لم يعد الأمر كناية عن جسد يحترق، بل عن رغيف يتم خبزه، كانت الشهيد كناية عن ذهب وفضة، وكنا نشتمّ رائحة لذيذة وكأنها عطرًا ثمينًا.

كان الرائع بوليكارب أحد هؤلاء المختارين، سيد زمنه، رسولًا، نبيًا، وأسقف الكنيسة الكاثوليكية لمدينة سميرن. كل عبارة خرجت من فمه تمّ تاكيدها وستتأكّد.

إن الشيطان، هذا الغيور، عدو عرق الأبرار، عندما رأى كبر هذه الشهادة، والسلوك النموذجي لهذا الشهيد منذ طفولته، وكيف وضع تاج الطهارة على جبينه، والمنحة الكبيرة التي استحقها، حاول أن يمنعنا من سحب جثة الشهيد الذي كثيرون كانوا يريدون لمسها من أجل الحصول على بركة بوليكارب. فكان أن همس هذا الشيطان لنيسيتاس، والد هيرودوس وشقيق ألسي، لإقناع الحاكم بأن لا يعيد جسد بوليكارب إلى أحبائه. لأنه قال لنفسه، سوف ينسون المصلوب من اجل عبادة شهيدهم الجديد. كان اليهود يزكون هذه الخطابات. وقد لحقوا بنا عندما حاولنا سحب الجثة عن عامود الحرق. لم يكونوا يعرفون أنه يستحيل علينا أن نتخلى عن المسيح الذي تعذّب من أجل خلاص العالم أجمع، والذي قدّم براءته من أجل خطايانا. نحن لن يمكن أن نعبد أي أحد آخر. نحن نكرّم المسيح لأنه إبن الله، ونحن نحب الشهداء لأنهم تلاميذ وأتباع السيد. غن تقواهم لا يمكن مقارنتها بملكهم ومعلمهم. وكيف نكون بهذه الحالة صحابتهم وتلاميذهم؟

عندما رأى الجدال الذي أطلقه اليهود، قام قائد المئة بعرض الجسد وسط الساحة، كما هي العادة وقام بحرقه. لهذا عُدنا فيما بعد

من اجل جمع الرماد التي كانت شديدة الأهمية بالنسبة لنا، والتي كانت أكثر قيمة عندنا من قيمة الذهب. وضعناها في مكان من اختيارنا. وهنا اعطانا السيد، بقدر ما نستطيع، القدرة على الاجتماع في فرح الإيمان والاحتفال، بمناسبة هذه الشهادة ومن أجل ان نتذكر الذي قاموا بالنضال قبله من أجل الإيمان، ومن اجل أن ندعم ونقوي هؤلاء الذين سيشهدوا للإيمان فيما بعد.
هذه هي قصة الطوباوي بوليكارب. كان الثاني عشر من بين اخوتنا في فيلاديلفيا الذين تعذبوا في سميرن. إن ذكراه تبقى حية كما ذكرى الآخرين، وهو الوحيد الذي كان الوثنيون يمدحونه في كل الامكنة. كان معلمًا صاحب مكانة، وشهيدًا خارجًا عن المألوف، بحيث أن الكثيرون كانوا يتمنون أن يحذوا حذوه، وكان شديد الامانة لإنجيل السميح. إن شجاعته كانت مصدر سلطة إيمانية مهمة، وهو استحق تاج الطهارة. هو الآن يتشارك فرحة الرسل وكل أهل الحق، وهو يمجّد الله، الآب الكلي القدرة، والمبارك سيدنا يسوع المسيح، مخلص حياتنا وموجّه أجسادنا، وهو كاهن الكنيسة الكاثوليكية المنتشرة في كل العالم.
أنتم تاملون الحصول على تقرير مفصل لهذه الاحداث. نحن اكتفينا هنا بسيرة ملخصة كتبها أخونا مارسيون. عندما تقرأون هذه الرسالة، أنقلوها إلى كل أقاربكم وأشقاءكم، حتى يقوموا بتمجيد السيد، الذي يقوم باختيار خدامه (...)

المصدر: نص تم مراجعته من قبل برونو شينو، وكلود برودوم، وفرانس كيري، وجان كلود توماس، **كتاب الشهداء المسيحيون**، باريس، سانتوريون، 1998، ص 42-49.